الموضوع الثامن

الدولة العثمانية ما لها وما عليها

من المعروف أن لكل دولة مزايا تذكر لها ، ومآخذ تسجل عليها وأن المؤرخ الصادق هو بمثابة القاضى الذى يحكم بالحيثيات وشهادة الشهود ، لذلك فليس من الموضوعية إغفال مزايا الدولة العثمانية والاقتصار على تسجيل عيوبها أو العكس بل يجب على المؤرخ أن يتعرض للجانبين معا دون التحيز لهذا الجانب أو ذاك .

ومن المعروف أن تاريخ آل عثمان بما فيه من حسنات وسيئات هو فى الواقع يعد حلقة من تاريخ المسلمين ، كما يعد مرحلة طويلة من مراحل تاريخ العرب الحديث ولا سيما فى الشرق الأدنى(١) . فلم ينظر العرب إلى الدولة العثمانية على أنها دولة أجنبية أو مغتصبة أو مستعمرة لبلادهم إلا فى بداية القرن الحالى ، خصوصا وأن العثمانيين مسلمون ، والدين السائد فى البلاد العربية هو الإسلام ، كما أن الدولة العثمانية حملت لواء الخلافة الإسلامية بعد هزيمتها للمماليك فى موقعتى مرج دابق والريدانية ، ونقل الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين من مصر إلى استنبول(٢) .

وحتى تتضح الصورة حول إيجابيات وسلبيات الحكم العثمانى ينبغى أن نقسم أدوار هذا الحكم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة القوة ، وهى المرحلة التى شيد فيها العثمانيون دولتهم على أسس سليمة مكنتهم من فرض سيطرتهم على مناطق كبيرة فى آسيا وأوربا وافريقية . وكانت نظرة العثمانيين خلالها لا تخلو من الشعور بالقوة والتفوق على من عداهم من البشر ، وحيث كانوا يعتمدون فيها على موقف المؤمن من غير المؤمن المدعم بتفوق عسكرى كاسح ، لذا فقد بنت الدولة العثمانية قواعدها على أنها دولة عسكرية وكل أفرادها – حتى ولو كانوا من العلماء والشيوخ – يعد محاربا عند الحاجة ، وهذه الفترة يمكن أن تتوقف عند موت السلطان سليمان القانونى ١٥٦٦م ومرحلة الضعف

١– محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثمانى جـ٢ ، بيروت ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص٨ .

٢– للتفاصيل انظر محمد بن أحمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٣ ، القاهرة ، المطبعة الكبرى ببولاق ، ١٣١٢هـ ص١٢٠ ، ص١٤٧ .

- على على تميزت بالهزائم العسكرية المتلاحقة التى برزت منذ هزيمة كارلويتز Karlovitz[1] ١٦٩٩-١٧٠٢م حيث اتضح من خلالها مدى تخلف القوات العثمانية عن ركب الحضارة الحديثة وعجزها عن رد كيد أعداء المسلمين[٢] . ويمكن القول بأن هذه المرحلة استمرت حتى سقوط الخلافة .

ومن خلال هاتين المرحلتين يتضح أن السلاطين الأوائل من من آل عثمان كانت فى الواقع لهم أياد بيضاء فى رفع شأن الإسلام وما وصل إليه من عظمة وسؤدد وسيادة. كما تحمل الأواخر منهم مسئولية المصير المؤلم الذى آلت إليه الدولة فى عهدهم ، وأدى فى النهاية إلى انهيارها[٣] .

فمن المعروف أن العثمانيين فى فتوحاتهم لأوربا نظروا إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شىء ، فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامى أولا[٤] حيث كان الدين والدولة عندهم شيئا واحدا ، والقرآن والسنة هما المصدران الأصيلان فى أى تحرك منهم أو عليهم ، ومن هنا فتحوا للإسلام العديد من الأمصار التى لم يطأ إليها قدم مسلم من قبل[٥] ، مما كان له أثر طيب فى نفوس المسلمين ، ففى القاهرة ودمشق كانت تقام الأفراح والزينات عقب كل انتصار يحرزه العثمانيون .

وقد اقترنت حركة الفتوحات العثمانية سواء فى الأناضول أم فى أوربا باسم الإسلام ومن هنا نظر الأوربيون إلى الفتوحات العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، فباسم الإسلام واصل عثمان مؤسس الدولة العثمانية جهوده فى نشر الإسلام فى مناطق الثغور، وواصل عمليات الجهاد الإسلامى المنظم ضد الكيانات المسيحية المجاورة له .

وباسم الإسلام تمكن مراد الأول ثالث أمراء آل عثمان ٧٦٢-٧٩٢هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م من دخول البلقان وتحقيق العديد من الانتصارات التى توجت بفتح مدينة

١- تنازلت بعدها الدولة العثمانية عن المجر وترنسلفانيا وبعض المناطق الأخرى لروسيا والنمسا وبولندا.

٢- سيد مصطفى : الإصلاح العثمانى فى القرن الثامن عشر - نقد حالة الفن العسكرى والهندسة والعلوم فى القسطنطينية ١٨٠٣م - تحقيق خالد زيادة ، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص١١ .

٣- مجموعة من المؤلفين : عصر السلطان عبد الحميد الثانى وأثره فى الأقطار العربية ١٨٧٦-١٩٠٩م، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية د . ت ص٩ .

٤- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠م ص١٠ .

٥- ول ديورانت : قصة الحضارة - ترجمة عبد الحميد يونس ، جـ٤ من المجلد السادس ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ص١٠٩ .

"أدرنة" ١٣٦١م[١] وهزيمة القوى النصرانية ونقل العاصمة من بروسه إلى أدرنة التى عمرت بالمساجد والمدارس وأصبحت نقطة انطلاق لمواصلة الفتوحات الإسلامية فى أوربا[٢] .

وباسم الإسلام استولى الجيش العثمانى على العديد من مدن شرق أوربا ومن أبرزها صوفيا عاصمة بلغاريا التى تم الاستيلاء عليها فى عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م[٣] .

وباسم الإسلام استمرت الفتوحات العثمانية فى البلقان وتساقطت مدنها أمام ضربات العثمانيين ، ووصل العثمانيون إلى المورة وأخضعوها لحكمهم وأصبحت معظم بلاد البلقان تحت الحكم العثمانى[٤] .

١١ وباسم الإسلام فتح محمد الثانى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م مصداقا للحديث الشريف "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش[٥]" ذلك الفتح الذى يعد نقطة تحول فاصلة ليس فقط فى تاريخ العثمانيين[٦] بل وفى تاريخ الصراع بين النصرانية والإسلام فبعد هذا الفتح المبين أمر محمد الفاتح أن يؤذن فيها ، واتجه إلى القبلة وصلى كما حول كاتدرائية آيا صوفيا إلى مسجد وأطلق على القسطنطينية اسما إسلاميا جديدا وهو إسلامبول[٧] بمعنى عاصمة الإسلام ، وبنى محمد الفاتح مسجدا كبيرا يحمل اسمه ، كما بنى عشرة مساجد أخرى[٨] ألحق بها مدارس للتعليم ومستشفيات للفقراء ولم تتوقف جهود الفاتح على ذلك بل استطاع القضاء على الإمارات المسيحية فى الأناضول ، وتحويل آسيا الصغرى كلها

١- أرنولد توينبى: تاريخ البشرية جـ٢ - ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨م ص١٨٧.

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٤٨-٥٠ .

٣- عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ص٣٤ .

٤- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٨٤م ص٤٢٧-٤٢٨ .

٥- ورد فى مسند أحمد ، وفى مستدرك الحاكم (حديث صحيح) وانظر أيضا جلال الدين السيوطى: الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ، المجلد الثانى ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص٤٠٢ رقم ٧٢٢٧.

٦- سيد مصطفى : المرجع السابق ص ٩ .

٧- حملت القسطنطينية على مر تاريخها أسماء عديدة منها استامبول واستانبول ودار السعادة ودار الخلافة والآستانة .

٨- منها مسجد "أبو أيوب الأنصارى" انظر دليل الآستانة ص٣ .

إلى مناطق عثمانية .

وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعا خطيرا وهو الاستيلاء على روما مقر البابوية مقسما أن يقدم الطعام بيده إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية في روما مما أزعج العالم المسيحي كله الذى لم يتنفس الصعداء إلا بعد وفاة هذا القائد المسلم فى عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م .

وباسم الإسلام تعددت مظاهر الطابع الإسلامي فى السياسة العامة للدولة العثمانية بدءا بالمراسيم التى كانت تتخذ عند تقليد السلاطين العثمانيين عرش السلطنة حيث كان السلطان الجديد يتسلم عرش السلطنة فى موكب رسمى يتجه إلى مسجد أبى أيوب الأنصارى ، ويتسلم فى جو دينى سيف الجد الأكبر للسلاطين العثمانيين السلطان عثمان الأول(١) .

وباسم الإسلام تردد فى القوانين العامة التى أصدرها السلاطين ، وفى مراسيم التنظيمات العثمانية ما يؤكد حرص الدولة على الظهور بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية والمتبنى لأحكامها(٢) .

وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان القانونى على بلجراد ورودس وبودابست ووصلت قواته إلى فينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون فى فتوحاتهم بأوربا(٣) .

وباسم الإسلام قدم السلطان العثمانى أبو يزيد الثانى ١٤٨٠-١٥١١ المعاونة للسلطان المملوكى قانصوه الغورى بعد تحطيم أسطوله فى موقعة ديو البحرية فأمده بالأسلحة والأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد ، وتجهيز حملة أخرى لمواجهة البرتغاليين استنقاذا للأماكن الإسلامية المقدسة(٤) ، كما انضم إلى الأسطول المملوكى بعض البحارة والضباط من الأسطول العثمانى للوقوف معا ضد البرتغاليين(٥) .

وباسم الإسلام أوقفت الدولة العثمانية المخطط الصليبى الذى كان يستهدف دخول البرتغاليين البحر الأحمر ، والاستيلاء على جدة والزحف على مكة المكرمة لهدم الكعبة

١- كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، بيروت ، ١٩٤٩ ص٤٦ .

٢- أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ ص١٤ .

٣- أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص٢٥٥ .

٤- ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٤ ص٢٠١-٢٠٣ .

٥- محمد عبد المنعم الرافد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ص١٢٣-١٢٥ .

المشرفة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومواصلة الزحف إلى تبوك وصولا إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فقامت الدولة العثمانية بوضع خطة جديدة تمثلت فى اتخاذ الموانى اليمنية – خصوصا عدن – خط دفاع لمهاجمة المراكز البرتغالية فى الهند ، والدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، كما استطاعت دحر الأسطول البرتغالى بالقرب من جدة عام ٩٢٣هـ ، وتحطيم كل المحاولات التى بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية ، وذلك بالتحالف مع الأحباش ضد القوى الإسلامية فى البحر الأحمر وشرقى افريقية(١) .

وباسم الإسلام قامت الدولة العثمانية بتوحيد أقطار العالم الإسلامى فى إطار سياسى واحد ، وتأليف جبهة إسلامية واحدة بعد أن كانت كيانات متنافرة ، وتكاد تكون متباعدة بين بعضها منذ أن تلاشت الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة وسقوطها فى عام ٦٥٦هـ على يد المغول(٢) ، وأصبحت رابطة الدين هى الرابطة الأساسية بين البلاد العربية بعضها مع بعض وبين الدولة العثمانية .

وباسم الإسلام اهتمت الدولة العثمانية بأمور الحجاز – وكان من أبرز مظاهر ذلك هو اهتمامها بالأماكن الإسلامية المقدسة – حيث به قبلة المسلمين ، ومهبط الرسالة ، ومنزل الوحى ، وملتقى قلوب المسلمين فقد أمر السلطان سليم الأول بوضع ثلث ما كان يجبى من مصر للإنفاق على خدمة الحرمين الشريفين ، كما أضاف لهذه المهمة أيضا خراج اليونان مما أضفى على البلاد الحجاز مركزا دينيا مرموقا ، كما أولت الدولة العثمانية قوافل الحج والاشراف عليها ، وتيسير الحج أمام الراغبين فيه اهتماما خاصا فاهتمت بالطرق ، وحفرت الآبار على طول طرق الحج ، وأقامت المخافر ، وكانت تشرف على قواعد الحج الرئيسية التى كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة(٣) .

وباسم الإسلام تدخلت الدولة العثمانية لنجدة أهالى الخليج العربى الذين طلبوا منها المعاونة فى عام ٨٥٧هـ/١٥٥٠م لمواجهة الخطر البرتغالى على بلادهم ، فبعث السلطان سليمان القانونى بحملات منظمة من السويس إلى الخليج العربى لمعاونة إخوانه فى الإسلام ، وسار على نهجه بقية السلاطين من بنى عثمان حتى عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٢١ .

٢- رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ص٣١ .

٣- مركز للبحوث والدراسات العربية والإسلامية : قنصية الحرمين الشريفين ، القاهرة ، هجر للطباعة والنشر ، مقال للدكتور الصفصافى المرسى تحت عنوان "قوافل الحج فى الدولة العثمانية" ص٦٣-٦٤.

واستطاعت هذه الحملات أن تنزل العديد من الهزائم بالبرتغاليين[1] .

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية ضد الأطماع البرتغالية وحالت دون تحقيقها فى أرض الإسلام وذلك بعد أن عجز المماليك وغيرهم من الوقوف أمام تهديدات البرتغاليين خصوصا بعد معركة ديو البحرية ١٥٠٩م فقامت بإغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن النصرانية ، ولم يسمح لها بتسيير سفنها فى القسم الشمالى من البحر الأحمر ، أو بالإبحار فى هذا البحر فيما وراء ثغر المخا جنوبى الحديدة فى اليمن ، وكانت ذريعتها فى ذلك أن أهم الأماكن الإسلامية فى العالم على الإطلاق تقع فى الحجاز ، ويطل ساحل هذا الإقليم على البحر الأحمر ، لذلك يجب ألا تبحر منه غير السفن الإسلامية[2] ، وظلت الدولة العثمانية متمسكة بذلك الموقف حتى أواخر القرن الثامن عشر[3] ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية قدمت أعظم خدمة للإسلام حيث وقفت فى وجه الزحف الصليبى البرتغالى للبحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة ، وكانت الملجأ للعالم الإسلامى وقت الملمات .

وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالى افريقية فى الصراع الصليبى مع الأسبان والبرتغاليين الذين حاولوا احتلال هذه الأقاليم وتحويلها إلى المسيحية فأعلن السلطان سليم الدعوة إلى الجهاد فى شمالى افريقية وأمر بتكوين كتائب المجاهدين[4] حتى استقرت الأمور للإسلام والمسلمين هناك .

وباسم الإسلام ساندت الدولة العثمانية أهالى طرابلس فى مقاومة الخطر الصليبى على بلادهم بعد أن أرسلوا إلى السلطان سليمان القانونى يلتمسون منه التدخل لإنقاذهم لتحرير بلادهم من الأسبان الذين استولوا عليها[5] وفرسان القديس يوحنا الذين استهدفوا تغيير الوجه الإسلامى لبلادهم . وقد أرسل السلطان سليمان قواته للمحافظة على هذه البلاد العربية الإسلامية[6] حتى استقرت الأمور هناك .

١- نوال الصيرفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى ، الرياض ، دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٤٤-١٤٥ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ، ص٦٩٨-٦٩٩ .

٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٢٨ .

٤- عبد الكريم رافق : المرجع السابق ص٧٦-٧٧ .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٢٨-٩٢٩ .

٦- المجلة التاريخية المصرية : المجلد الخامس والعشرون ١٩٧٨ مقال للدكتور ناصر سعيدونى تحت عنوان "طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر ص١٤٩-١٥٠ .

وباسم الإسلام قام العثمانيون بملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من رودس[1] ثم من ليبيا عام ١٥٥١م وكذلك تيامهم بكسر شوكة الأسبان فى حوض البحر المتوسط الغربى[2] .

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية أمام زحف الصفويين الشيعة الذين تمكنوا من الاستيلاء على العراق ، ونشر المذهب الشيعى فى الأناضول ، وراحوا يحملون الناس قسرا على الدخول فى مذهبهم ، ولا يترددون فى إفناء مدن بأسرها ، والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوتهم ، ويتمسكون بالمذهب السنى[3] .

وكان من نتيجة ذلك قيام السلطان العثمانى سليم الأول بغزو فارس والالتقاء مع الصفويين بوادى جالديران[4] فى أواخر عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م فى معركة رهيبة استطاع فيها العثمانيون هزيمة الصفويين فى جالديران ودخول عاصمتهم تبريز[5] فى ١٤ من رجب ٩٢٠هـ وضم ولايتى ديار بكر وكردستان إلى بلاده والاستيلاء على خزائن الشاه، والقضاء على المد الشيعى فى الأناضول[6] والعمل على انحساره فى العراق ، وبذلك استطاع العثمانيون حماية المذهب السنى من خطر الزحف الشيعى الذى كان الشاه اسماعيل الصفوى يأمل فى نشره فى كافة أنحاء المشرق العربى والقضاء على المذهب السنى . ولم يكتف العثمانيون بذلك بل خاضوا العديد من المعارك مع الفرس دفاعا عن العراق الذى كان الفرس يتطلعون إليه دائما ، ويرغبون فى صبغته بالصبغة الشيعية ولو بحد السيف[7] . وبالرغم من أن ذلك كلفهم العديد من الرجال والعتاد[8] فقد تمكنوا من حصر المذهب الشيعى فى فارس ، ولم يسمحوا بتسربه إلى البلدان العربية الواقعة تحت

١- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١٢٧ .

٢- رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٢-٣٣ .

٣- أحمد الساداتى : المرجع السابق ص١٥٢ .

٤- يقع بين بحيرة أرمية وتبريز بآذربيجان .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٤ .

٦- مما يذكر أن السلطان سليم قتل نحو الأربعين ألفا من الشيعة . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٨٩ .

٧- عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص٥ .

٨- الساداتى : المرجع السابق ص٢٥٥ .

سيطرتهم(١) ، وبذلك ظهر سلاطين الدولة العثمانية أمام العالم الإسلامى بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية ، والحماة التقليديين للمذهب السنى .

وباسم الإسلام عد الأتراك أنفسهم حراسا لدولة الإسلام وقد دفعهم ذلك إلى الاحتفاظ بحاميات فى الأقاليم العربية التابعة لهم ، وإذا كان الجندى العثمانى لا يتميز بسرعة اندماجه مع الأهالى فإن طول مدة إقامة الحاميات العثمانية فى عدد من الأقاليم البعيدة عن عاصمة الدولة ، وخاصة فى شمالى افريقية كان يسمح بنوع من الاندماج والمصاهرة(٢) .

وباسم الإسلام أصدرت الدولة العثمانية بعد فتحها لمصر فرمانا بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء على أساس أنها تضم الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام فقال تعالى: **"وكلم الله موسى تكليما(٣)"** ، وقال : أيضا **"ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه(٤)"** .

وسار سلاطين الدولة العثمانية على هذا المنوال حتى جاء الانجليز وسيطروا على مصر فى عام ١٨٨٢م فتغيرت الأوضاع(٥) هناك .

وباسم الإسلام استولى العثمانيون على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩-١٥٤٢) فى المعركة التى دارت رحاها بينهم وبين القوات البرتغالية ، والتى قاتلت فيها القوات العثمانية إلى جانب المسلمين ، بينما قاتل البرتغاليون إلى جانب الأحباش وقد خرجت الحبشة من القتال وقد أصابها الدمار ونقص سكانها(٦) .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية خصوصا وأن مبعث ولاء المسلمين للدولة العثمانية كان دينيا ، حيث كانوا مكلفين شرعا بطاعة السلطان باعتباره الخليفة والأب الروحى للمسلمين ، ونائب رسول الله صلى الله

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٥ .

٢- جلال يحى : المغرب الكبير جـ٣ ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٨١م ص٧٠٠ .

٣- النساء : الآية ١٦٤ .

٤- الأعراف : الآية ١٤٣ .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٦ .

٦- توينبى : المرجع السابق جـ٢ ص١٨٩ .

عليه وسلم ، وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا[1] . ومن هنا رأى السلطان عبد الحميد الثانى استخدام هذا الولاء فى حماية البلدان الإسلامية من الأخطار التى تحيط بها ، وانقاذها من حالة التفسخ والركود الذى تغلغل بين أفرادها فدعا إلى جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت لغاتهم وبلادهم .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بإنشاء سكة حديد الحجاز الذى يصل دمشق بالمدينة المنورة . وبذلك شهدت الأراضى الإسلامية المقدسة لأول مرة فى التاريخ "خطا حديديا" يخدم حجيج بيت الله الحرام ، ويوفر لهم الأمن والسرعة والراحة بعد أن كانوا يستخدمون قوافل الجمال ويتعرضون للعديد من المخاطر ، فكان ذلك أعظم هدية قدمها السلطان عبد الحميد للمسلمين[2] .

وباسم الإسلام وقف السلطان عبد الحميد الثانى ضد استيطان اليهود فى فلسطين ، فعندما عرض عليه هرتزل حل أزمته المالية فى نظير السماح لليهود بالاستيطان فى فلسطين[3] رفض طلبه وحسم الموقف معه بقوله "إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهى ليست ملك يمينى بل ملك شعبى ، لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم[4]" .

ولإحساس السلطان عبد الحميد بعدم توقف الضغوط اليهودية عليه بدأ يهتم بالأوضاع الإدارية فى بيت المقدس فجعلها متصرفية تابعة للباب العالى مباشرة بعد أن كانت تابعة لباشا دمشق ، كما عين محمد شريف رءوف باشا المشهور بشدته متصرفا على القدس[5] . يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية حافظت على تقاليد الخلافة السابقة فى اعتمادها على القرآن كمصدر للتشريع وإن كانت تحيد عن بنوده فى بعض الأحيان[6] .

كل ذلك جعل العالم الإسلامى ينظر إلى أعمال العثمانيين على أنها مفخرة للإسلام والمسلمين .

هذا عن مشارب الدولة العثمانية فماذا عن مثالبها .

١- محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية جـ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٢م ص٢٠ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٣٢٥-١٣٢٦ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٨٨ .

٤- عبد الحميد الثانى : مذكراتى السياسية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ ص٢٤ وما بعدها .

٥- سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٦- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٧٥-٩٧٩ .

والواقع أن هناك العديد من المآخذ التى أخذت على العثمانيين مثل عدم نجدتهم لأهل الأندلس خلال سقوط غرناطة . ونظام الحكم العثمانى سواء فى داخل مقر السلطنة أو فى الولايات العربية ، وضعف اللغة العربية وضياع هيبة العلماء ، والمآسى التى ارتكبت فى أواخر الحكم العثمانى ضد العرب خصوصا بعد ظهور النعرات القومية كالطورانية أو غيرها وفيما يلى نعرض لذلك :

١ - عدم نجدة أهل الأندلس خلال محنتهم :

تتحمل الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية وقت سقوط الأندلس مسئولية عدم تقديم النجدة للغرناطيين الذين ناشدوها مساعدتهم عسكريا فى صراعهم من أجل البقاء، والمحافظة على الدين والملة ، فقد أرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ١٤٧٧م إلى السلطان محمد الفاتح يناشدونه التدخل لإنقاذهم ولكنه كان مشغولا عنهم[١] ، كما استنجد الغرناطيون بالسلطان بيازيد الثانى ١٤٨٠-١٥١١م ولكنه لم يقدم لهم النجدة[٢] .

٢ - التنازع على وراثة العرش وتنافر الأسرة المالكة العثمانية :

إن نظام التوارث على العرش يكون له أثر كبير فى استقرار أمور الدولة إذا بنى على أسس ثابتة ومعروفة ، أما فى الدولة العثمانية فإن هذا النظام كان فى حاجة إلى انتظام ففى الفترة الأولى من عصر السلاطين كان نظام الوراثة يقوم على أساس انتقال العرش من الابن البكر إلى الأكبر فالأصغر من الأبناء ، وهكذا فإن اخوة السلطان وأبناءهم الذين يخرجون من السلطة بمقتضى هذا النظام كانوا كثيرا ما يغتنمون الفرص للخروج على السلطان أملا فى استخلاص العرش لأنفسهم ، يقابل ذلك أن السلطان القائم كان يفقد الثقة باخوته ولا يتورع عن الفتك بهم ، ثم عدل نظام الإرث فى عهد السلطان الرابع عشر أحمد الأول ١٦٠٣-١٦١٧م فأصبح العرش ينتقل من الأكبر فالأصغر من إخوة السلطان بدلا من انتقاله إلى الأكبر فالأصغر من بنيه[٣] ، ثم تغير هذا النظام بأن أصبح للسلطان الحاكم الحق فى أن يختار من يخلفه من بين أبنائه أو من إخوته دون أن يتقيد باختيار الابن أو الأخ الأكبر من أدى إلى ظهور روح التنافر ، وقيام المؤامرات داخل القصور السلطانية لإبعاد أمير عن العرش أو تقريب أمير آخر منه ، وكانت هذه المؤامرات تأتى غالبا من زوجات السلطان اللاتى أنجبن أولادا منه رغبة فى أن يكون

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٨٩٨ .

٢- هناك من يذكر أن السلطان بيازيد الثانى أرسل أسطولا لنجدة أهل الأندلس ولكن ذلك لم يثبت تاريخيا. انظر ستانلى لين بول : الدول الإسلامية - ترجمة محمد صبحى فرزات - القسم الأول ، دمشق ، مكتب الدراسات الإسلامية ص٦٥ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٧ .

ابنهن وليا للعهد ، ونظرا لهذا التصارع للوصول إلى السلطة كان الابن الذى يصل إلى منصب السلطنة كثيرا ما يقوم بقتل جميع منافسيه ، أو يفرض عليهم أن يظلوا سجناء فى قصورهم لا يخالطون أحدا ومن غريب الأمر أن يصدر السلطان محمد الفاتح قانونا خول بمقتضاه السلطان الذى يتولى العرش بأن يقوم بقتل اخوته تأمينا لسلامة الدولة وأمنها القومى(١) ، وقد عبر محمد الفاتح عن ذلك صراحة فى سجل القوانين بقوله "إن غالبية المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش يكون لهم الحق فى إعدام إخوتهم تأمينا للسلام فى الدولة وعليهم أن يعملوا طبقا لهذا" وبهذا حكم محمد الفاتح فى هدوء بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم ، وثمة سبة أخرى من سيئات هذا النظام وهى أن ممتلكات المحكوم عليهم بالإعدام كانت تؤول إلى السلطان مما شجع العديد من السلاطين على اقتراف هذه الجريمة(٢) .

أى صلات رحم هذه التى يقوم فيها الأخ بقتل إخوته خشية على سلطته ؟! ثم جاء بعد ذلك دور الإنكشارية فى التمثيل بالسلاطين أنفسهم وعزلهم وتنصيب من يجدون فيه عونا لهم وذلك منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، وأبرز الأمثلة على ذلك أنهم قاموا بخلع السلطان مصطفى الأول ، وقتلوا عثمان الثانى وإبراهيم الأول(٣) .

٣ - زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات :

لقد سمح الإسلام للرجل المسلم بالتزوج من النصرانية أو اليهودية طبقا لقوله تعالى: "**اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا ءاتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالايمان قد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين(٤)**" .

ولكن قد يقتضى الأمر أحيانا عدم الزواج من الكتابيات خشية تسرب أسرار الدولة إلى أعدائها من اليهود والنصارى ، وقد يقتضى الأمر أيضا زواج السلاطين من الكتابيات لمصالح سياسية فمثلا كانوا يتزوجون من بنات الملوك والأمراء النصارى أو اليهود ليكسبوا ودهم .

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٣٤٦-٣٤٩ .

٢- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٥ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٨ .

٤- سورة المائدة : الآية ٥ .

وعلى الرغم من أن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان قد اختاروا الزواج من الأجنبيات لغايات سياسية ، ولتأمين العصبيات فانه سرعان ما تطورت الأمور وأصبحت قصور السلاطين آهلة بالجوارى والسرارى الأجنبيات اللاتى تظاهرن بالإسلام ولكنهن فى الواقع لن ينسين أوطانهن الأولى ولا قوميتهن السابقة فاستغللن وضعهن فى القصر السلطانى واهتممن بخدمة أوطانهن الأصلية على حساب الدولة العثمانية[1] . وقد أوتين من الدسائس ألوانا أودت بعز الدولة ، وسودت صفحات عواهلها مما كان له أكبر الأثر فى تفسخ الأسرة العثمانية المالكة وإضعاف شأنها[2] ، وأبرز الأمثلة على ذلك أن السلطان سليمان القانونى ضم إلى حريمه نحو ثلاثمائة جارية كلهن مشتريات من الأسواق أو أسيرات فى الحرب ، ومعظمهن من أصل مسيحى[3] ، يضاف إلى ذلك انه كانت له محظية شركسية تعرف باسم "وردة الربيع" أنجبت له طفلا أسماه مصطفى ، وعهد إليه بعدة مناصب ، ودربه ليكون وريثا للعرش[4] ، ثم فجأة شغف بروكسلانه الروسية التى انتزعته من محظيته الشركسية فاتخذها زوجة له ، وقتل ابنه وولى عهده مصطفى إرضاء لها بعد أن حبكت له مؤامرة – شاركها فيها رستم باشا الصدر الأعظم[5] – أوغرت فيها صدر أبيه عليه ، وعين ابنه سليم من روكسلانه وليا للعهد بدلا من أخيه الأكبر[6] .

يضاف إلى ذلك أن هذه المرأة استطاعت حجب زوجها السلطان عن قيادة الحملات الحربية بعد أن كان وجوده فى ساحة القتال يثير حماس الجنود ويلهب مشاعرهم[7] . وسار من جاء بعده من السلاطين على منواله مما أدى إلى فتور حماس الجند ، كما بدأ الفساد يدب فى صفوف الإنكشارية الذين كانوا قد اعتادوا على أن لا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود حملتهم . يضاف إلى ذلك أن السلاطين أصبحوا فى معزل عن معرفة أحوال قواتهم ، ومدى ما وصلت إليه من قوة خصوصا وأن الحاشية السلطانية كانت تحجب عن السلاطين الأمور التى لا تريد أن تصل إلى مسامعها[8] .

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٤٠ .
٢- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٣ .
٣- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٧ .
٤- نفسه ص١٢٦ .
٥- ألقت روكسلانه فى روع زوجها سليمان أن ابنه نصطفى يحاول أن يكسب شعبية تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، كما اتهم رستم باشا مصطفى بانه يتودد سرا إلى الانكشارية ليقفوا بجانبه ضد أبيه مما جعل الشك يساور السلطان فأمر بقتل ابنه . انظر ول ديورانت : المرجع السابق ص١٢٧ .
٦- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٦١٧ .
٧- نفسه : ص٦١٤ .
٨- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٢٢ .

٤ - الاعتماد على الانكشارية :

اعتمدت الدولة العثمانية فى عملية التجنيد على جمع أبناء العائلات الأرثوذكسية خصوصا من البلقان فكانت ترسل وكلاءها إلى هذه المناطق حيث يطلبون من قسيس القرية كشفا بأسماء الأطفال الذكور الذى قام بتعميدهم ثم يقومون بجمعهم ، ويتحركون بهم إلى الآستانة حتى تنقطع صلاتهم بذويهم نهائيا(١) . وقد عرفت هذه العملية باسم "الدفشرمه(٢) " Devshirme أو ديوشيرمه وهى كلمة تركية تعنى ضريبة الغلمان .

وقد أعدت الدولة هؤلاء الغلمان ليكونوا فرق مشاه فى الجيش العثمانى وأطلق عليهم الانكشارية(٣) . وقد قامت هذه القوات بدور رئيسى فى الفتوحات العثمانية وصار لا يعول إلا عليها فى الحرب ، ولما أخذت الدولة العثمانية تمر فى مراحل الضعف ترك الحبل على الغارب لزعماء الانكشارية حتى تضخم نفوذهم وتزايد لدرجة أنهم خرجوا عن حدودهم وتعدوا واستبدوا وأصبحوا عبئا ثقيلا على السلاطين أنفسهم خصوصا بعد أن صار بمقدورهم تنصيب السلاطين أو خلعهم(٤) . يضاف إلى ذلك قيامهم فى العديد من المرات بالتمرد ، وسلب أموال الأهالى ، وإشعال النيران فى ممتلكاتهم واقتحام المنازل والاعتداء على من فيها ، واعتراض مواكب السلاطين(٥) والتدخل فى سياسة الدولة العليا، هذا إلى جانب انتهاكهم للشريعة وتمزيق القرآن أثناء ثوراتهم ، وإهمال الصلاة ، وشرب الخمر(٦) ، واستمرت الأحوال على ذلك حتى تمكن السلطان محمود الثانى من القضاء عليهم بقتل أغلبهم فى ٩ ذى القعدة من عام ١٢٤١ الموافق ١٦ من يونيو ١٨٢٦(٧) دون أن يجد البديل الذى يستطيع حماية أراضى الدولة العثمانية والدفاع عنها ضد أعدائها .

١- لتفاصيل ذلك انظر :

H. Gibb and H, Bowen : Islamic Society and the west, vol 1 pp. 56-60 .

٢- عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربى ١٥١٦-١٩٢٢ ، بيروت ، دار النهضة العربية ص٤٢ .

٣- معناها الجنود الجدد ، وقصة هذه الكلمة أنه لما صار لدى السلطان أورخان عدد ليس بقليل من هؤلاء الجند ، سار بهم إلى شيخ طريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير ، فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) أى الجيش الجديد ثم حرف هذا الاسم فى العربية فصار انكشارى . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص٤٢ . انظر أيضا توينبى : المرجع السابق جـ٢ ص١٨٨ .

٤- سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٥- لتفاصيل ذلك انظر الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٤٩٤-٤٩٩ .

٦- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢٦٨ .

٧- محمد فريد : المرجع السابق ص٤٢ .

٥ – عدم مسايرة الدولة العثمانية للتطور فى أنظمة الحكم وأحداث عصر النهضة:

لم تعمل الدولة العثمانية على تطوير أنظمتها فى الحكم والادارة فظلت أنظمتها جامدة فى حين أخذت أوربا فى تطوير أجهزتها الحكومية منذ عصر النهضة مما أوجد فجوة حضارية بينهما .

ونتيجة لذلك أخذت الشعوب المسيحية التابعة للعثمانيين تتطلع إلى الانفصال ، وبدأت الدول الأوربية تتدخل من أجل اقتسام أملاك الدولة العثمانية[١] فدعت إلى عقد مؤتمرات دولية لبحث ما أطلق عليه المسألة الشرقية .

يضاف إلى ذلك أن العثمانيين لم يسايروا تطورات عصر النهضة فى أوربا مما جعل فجوة الحضارية شديدة الاتساع بين الشرق والغرب ، وأظهر عجز العثمانيين عن متابعة هذه التطورات .

٦ – الاعتماد على غير المسلمين فى تسيير أمور الدولة العامة :

لقد وجد اليهود والنصارى عند السلاطين العثمانيين صدرا رحبا إذ اعتمدوا عليهم فى جميع أجهزة الدولة خصوصا المناصب الكبرى منها فشكل هؤلاء غالبية الهيئة الادارية فى الحكومة العثمانية[٢] ، كما أسند إليهم قيادة الجيوش ، ووصل بعضهم إلى منصب الوزارة والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٨–١٤٠٣م قد ولى الأمير سيسمان ابن ملك البلغار على ولاية صمصون ، يضاف إلى ذلك أن الباب العالى اعتمد فى اختيار وزرائه على الأوربيين حديثى العهد بالإسلام لا سيما الألبان[٣] . وإلى جانب ذلك فإن العثمانيين سمحوا لليهود الدونمة بتولى الوظائف الهامة فى الدولة ، مما كان له أكبر الأثر فى ضرب الإسلام وتهديم كيانه من الداخل خصوصا بعد أن لبس هؤلاء لباس الإسلام وعاشوا بين المسلمين يظهرون لهم المودة فى حين كانوا فى الباطن يدبرون لهم المؤامرات ، ويكونون التنظيمات المعادية للإسلام بهدف اقتلاع الحكم الإسلامى من جذوره وقد ساعدهم على ذلك صلتهم الوثيقة بحكومة الاتحاد والترقى التى استولت على الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد

٧ –المآسى التى ارتكبها العثمانيون ضد العرب :

ارتكب العثمانيون العديد من المآسى ضد الشعوب العربية بطريقة تبعد حكمهم إلى حد كبير عن روح الإسلام وسماحته ، فقد كانوا فى كثير من الأحيان يشعرون بميزة

١– الشناوى : المرجع السابق جـ٤ ص١٨١٠–١٨١١ .

٢– ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٢ .

٣– بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٣٩ .

مستواهم المستمدة من سلطة عنصرهم على حين كان العرب يشعرون بأنهم أصحاب البلاد الأصليين والأدلة على ذلك متعددة وواضحة ذكرها بعض شهود العيان ومن هؤلاء المؤرخ ابن اياس الذى قال عن جنود السلطان سليم بعد دخولها إلى بلاد الشام "إن عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ، ونهب الفواكة من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم فى الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار وطردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا بها وأخربوا غالب بيوت الشام وحصل منهم لأهل الشام غاية الضرر(١)" . وقال بعد دخول القوات العثمانية مصر إن "ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ويتم أطفالها ،.وأسر رجالها وبدد أحوالها وأظهر أهوالها(٢)" . يضاف إلى ذلك "أن ابن عثمان كان ينحجب عن عسكره أياما لا يظهر فيها وفى هذه المدة يقتل العسكر خلقا فى المدينة ، ويتجاهرون بالمعاصى والفسوق ، وأنهم لا يصومون شهر رمضان ، ويشربون فيه الخمر والبوزة ، ويستعملون فيه الحشيش والشحيب ويفعلون الفاحشة فى الصبيان المرد فى شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلى الجمعة إلا قليلا . وقد أشيعت عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة"(٣) .

وذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى مفاسد الجند العثمانى بقوله "يأكلون ويشربون جهارا فى نهار رمضان ، ويشربون الحشيش والمسكرات ، ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا فى نهار رمضان ولياليه(٤) " .

وأوضح محمد الادريسى – أمير منطقة المخلاف السليمانى – مفاسد الأتراك العثمانيين بقوله إنهم كانوا "يستبيحون الحرم ، وينتهكون الأعراض ، ويتجاهرون بالمعاصى والخروج عن الحدود التى حددها الله ورسوله غير مبالين ولا متأدبين فلا الصلاة يؤدون ولا الشهر يصومون ، ولا هم فى حكمهم يعدلون"(٥) . كل ذلك جعل الأهالى ينفرون منهم، كما ذكر الادريسى أن العثمانيين كانوا يتقاضون الرشوة ، ويحتقرون العرب ولغتهم هذا بالاضافة إلى إهمال جميع المصالح العامة وإهانة رجال الدين(٦) .

١– ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص١٤٤ .

٢– نفسه جـ٣ ص١٣٣ .

٣– نفسه جـ٣ ص٨٢–٨٣ .

٤– عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ٤ ، القاهرة ، المطبعة الشرفية ١٣٢٢هـ ص٢٢٨ ، ٣١٠ .

٥– محمد الادريسى : هذا بيان للناس وموعظة للمتقين ، رسالة إلى صديق له فى مصر بتاريخ ٦ ربيع الثانى ١٣٣٠هـ .

٦– نفسه .

يضاف إلى ذلك أن الادارة العثمانية لم تعمل على إيجاد أى باعث حقيقى لإسعاد رعاياها بل انقسم أبناء الدولة إلى حكام ورعايا ، كما انتشرت الرشوة فى كافة الأوساط الحكومية لدرجة انه كان هناك سماسرة للوزراء خصوصا فى أيام عبد الحميد الثانى ينتشرون فى الولايات ، ويعقدون الصفقات فى شئون الدولة[1] مما كان له تأثيرات سلبية خصوصا على المجتمعات العربية أدت فى نهاية الأمر إلى عدم شعور الأهالى بالولاء للدولة العثمانية[2] .

ومن مساوىء أنظمة الدولة العثمانية لحكم البلاد العربية ما يلى : -

١ - أن الوالى الذى كان بمثابة نائب السلطان فى البلد الذى يحكمه وكان تعيينه غالبا لمدة عام واحد مما جعل الولاة لا يهتمون بأمور ولاياتهم بل كان جل همهم هو جمع الأموال لأنفسهم والانصراف عن المشروعات العمرانية والإنتاجية التى تتطلب متابعة متوالية لإتمامها[3] .

٢ - انتشار الرشوة بين أفراد الديوان الذى كان بمثابة الهيئة الحكومية العليا نتيجة تبنى موظفى الادارة العثمانية بعض الأفكار الخاطئة عن اختصاصهم فصار التقليد المتبع هو الحصول على الترقية بالرشوة والمحسوبية ، كما طرحت المناصب الادارية والمدنية والامتيازات والرتب فى المزاد العلنى ، وساد الاستهتار بين موظفى الدولة والجند الذين فقدوا بالتدريج المثل الأخلاقية التى كانت قد بدت واضحة عليهم فى المراحل الأولى من الحكم العثمانى ، فالباشا الصالح فى نظرهم هو الذى كان يرسل المبالغ المعينة التى تطلبها خزانة السلطان ، وكانت هذه هى أول خطوة نحو الرشوة فقد عمل الولاة على الاستفادة من وجودهم فى مناصبهم ، وتعويض ما دفعوه من رشاوى هذا بالإضافة إلى تكوينهم للثروات الضخمة[4] .

٣ - تركيز السلطة فى أيدى بعض الزعماء المحليين الذين حاولوا الاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية مما أدى إلى سلسلة من الاضطرابات والانقسامات داخل الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية[5] .

٤ - لجوء الدولة العثمانية إلى طريقة الالتزام حتى تتمكن من تأمين الأموال اللازمة لها خصوصا وأن الملتزمين كانوا يجمعون من الأهالى ما يفوق الأموال التى

١- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٤٤ .

٢- رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٦-٣٧ .

٣- جلال يحي : العالم العربى الحديث ، الاسكندرية ، دار المعارف ١٩٧٤م ص٥١ .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٢٧ .

٥- نفسه : ص١٢٦ .

كانت تطلبها الدولة . فكان الملتزمون كثيرا ما يقترضون الأموال من مصارف استنبول بربا فاحش بغية تأمين المبالغ المقررة عليهم دفع الرشاوى للمسئولين حتى يقع عليهم الاختيار فإذا بلغوا مقر ولايتهم تفننوا فى ابتزاز الأموال من الأهالى فكانوا يفرضون الضرائب الباهظة ، ويطلقون أيديهم فى ممتلكات الأهالى ، ولا يتورعون عن المصادرات، واتهام الأبرياء بالجنايات بغية ابتزاز الأموال مما أدى إلى تخريب القرى والاقطاعات من جراء المظالم التى ارتكبت والاعتداءات ووقوع الأهالى فى شراك الفقر والمظالم(١) ، ويا ليت الأمر اقتصر على الأحياء ، فقد قرر رجال الدستور من العثمانيين استيفاء ضريبة على دفن الموتى(٢) .

٥ – عدم اهتمام العثمانيين بنواحى التعليم الصحة والعمران فى البلدان العربية خصوصا وأن فكرة الحكم عند العثمانيين كانت بسيطة للغاية وهى ان للدولة وظائف محددة لا يجب أن تتعداها وهى الدفاع عن ولاياتها ، والحفاظ على الأمن وتحصيل الأموال أما فيما عدا ذلك مثل الاهتمام بالتعليم أو الرعاية الصحية أو النواحى العمرانية فقد كانت الدولة العثمانية تعدها خارج نطاق مسئوليتها وتتركها للأفراد والجماعات .

وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية التى حكمت العالم العربى حوالى أربعة قرون لم تترك فيه أى أثر من الآثار العمرانية الكبيرة يذكره التاريخ لها فلم تهتم بالمرافق ، ولم يهتم الولاه العثمانيون بحفر ترعة أو إقامة جسور جديدة ، بل جفت بعض الترع القديمة لعدم تطهيرها ، وانهارت الجسور القائمة لعدم العناية بها ، وأغلقت بعض المدارس التى كانت قائمة قبيل الحكم العثمانى ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين فرضوا على أنشطة العرب فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية جمودا بحيث لم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم فى هذه المجالات . وإلى جانب ذلك فقد تسبب العثمانيون فى قتل النشاط الاقتصادى المزدهر فى معظم البلدان العربية ، ويرجع ذلك إلى أن الدولة العثمانية لم تتدخل سريعا وبصورة جدية لضرب المعاقل البرتغالية فى الخليج العربى والهند إلا بعد نصف قرن من الزمان(٣) تقريبا هذا إلى جانب أن العثمانيين نقلوا إلى بلادهم أكثر ما فى القلعة وأكثر ما فى منازل السلاطين والأمراء المماليك من الذخائر والنفائس والكتب وقد وصف ذلك أحد شهود العيان بقوله: "وأشيع أ ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل

١– بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٤٧–٤٨ .

٢– كان مقدار هذه الضريبة خمسة ريالات وللتفاصيل انظر أحمد السباعى : تاريخ مكة جـ١ ، مطبوعات نادى مكة الثقافى ، الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٥٦٠ .

٣– الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٤٤٦–١٤٤٨ .

محملة ما بين ذهب وفضة هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصيني والنحاس والمكنت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك حتى نقل منها الرخام الفاخر(١) "

يضاف إلى ذلك أنه نقل العمال المهرة من مصر إلى الآستانة(٢) حتى أغلقت الكثير من الورش ، وفقدت مصر أكثر من خمسين صنعة(٣) .

٦ – تدهور الدراسات الدينية والفكرية وانحطاط هيبة العلماء :

خلال الحكم العثمانى للعالم العربى ضاق حيز الدراسات الدينية نسبيا ، ولذلك لا نجد فى العصر العثمانى حماس العلماء من أجل إضافة أشياء جديدة تضاف إلى رصيد ما جاء به فحول الفقهاء فيما يتعلق بالشريعة والخلافة والإمامة ونظم الحكم بل انحطت هيبة العلماء ، وتدهورت سمعتهم ، وازداد نمو الفساد فى سلوكهم لدرجة أن الوظائف العليا بينهم كانت تباع للأشخاص غير المؤهلين لتولى هذه المناصب(٤) . يضاف إلى ذلك أن إهمال العثمانيين للغة العربية ، وسيطرة اللغة التركية عليها خاصة فى دواوين الحكومة والمعاملات الرسمية قد أدى إلى شيوع العجمة فى التراكيب ، والتردى فى الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية(٥) ، وانتهى الأمر باستغلال الارساليات التنصيرية للفرصة ، وتشجيعهم لنصارى الشام على حمل لواء النهضة الفكرية فى العالم العربى .

وإلى جانب ذلك فقد أدى تدهور الدراسات الدينية إلى انتشار البدع والخرافات بين المسلمين حتى أصبح الناس لا يعرفون التفرقة بين الصحيح وغير الصحيح فى دينهم ن ونتيجة لذلك راح العلماء العرب الغيورون على دينهم يحاولون إصلاح أمور بلادهم وأبرز مثال على هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى تعد دعوته أولى الحركات الإصلاحية فى الوطن العربى ، والتى بذلت الدولة العثمانية جل جهودها للقضاء عليها .

٧ – تدهور الحركة العلمية فى العصر العثمانى :

سيطرت روح الجمود المطلق على الحركة العلمية فى البلدان العربية إبان الحكم العثمانى فلا نكاد نجد فى العصر العثمانى مؤلفات تتمتع بشىء من الأصالة العلمية وبالتالى لا نجد علماء يماثلون علماء العصر المملوكى مثلا فقد انكب العلماء فى العصر العثمانى على تأليف الملخصات ووضع الحواشى على الحواشى وتخيل غرائب المسائل

١– ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص١٣٣ .

٢– نفسه ص١٢٢ .

٣– الجدير بالذكر ان السلطان سليمان القانونى قد أمر بإعادة هؤلاء العمال إلى مصر .

٤– عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢١١ ، ٢٦٧ .

٥– عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ١٩٨٠ ص٣٩٦ .

النحوية والفقهية ، وصاروا يدعون إلى الاستسلام للأمر الواقع .

ولم يقف الحال على ذلك بل أغلقت معظم المدارس وتدنت الروح العلمية فيما تبقى منها تدنيا ظاهرا بسبب تعصب العثمانيين من جهة ، ونضوب الموارد المالية من جهة أخرى ، وعلى هذا فإنه يمكن القول: إن مرحلة الانحطاط العلمى قد سيطرت على البلدان العربية ، منذ استيلاء العثمانيين عليها[1] ولكن هل هذا يعنى أن نلقى اللوم كل اللوم على العثمانيين فحسب . فالواقع أن هناك بعض المناطق العربية مثل المغرب ونجد وعمان لم تقع تحت طائلة الحكم العثمانى ، ومع ذلك فانه لم ينتابها التقدم مثلها مثل البلدان العربية الأخرى التى دخلت تحت الحكم العثمانى مما يوضح أن الأوضاع التى خيمت على البلدان الشرقية فى ذلك الوقت ، وروح الركون إلى الكسل والخمول الذى انتاب رجالاتها كان لها الدور الأكبر فى ذلك .

٨ – إهمال شئون أمن الحجاج والحرمين الشريفين :

فى الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى لم تهتم الدولة العثمانية بشئون حجيج بيت الله الحرام لدرجة أن الأعراب كانوا ينقضون على الحجاج سلبا ونهبا وقتلا ، ويسومونهم سوء العذاب دون أى رادع يردعهم خصوصا وأن العثمانيين لم يرسلوا إلى أرض الحجاز من الجنود ما يحفظ الحج والحجاج ويجعلهم فى مأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم[2].

ومما زاد الطين بله انه عندما قامت ثورة الشريف حسين بن على ضد الأتراك فى شعبان ١٣٣٤هـ/ يونيو ١٩١٦م ودارت رحى المعارك من أجل إخراج الأتراك من مكة أطلق الأتراك نيران مدافعهم من قلعة أجياد المقامة على الجبل صوب الكعبة حتى التهمت النيران أستار البيت العتيق ، وهرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبها ، وفتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهب[3] .

وهكذا انتهك الأتراك حرمة أقدس البقاع فى الأرض ، ومهما برر البعض الأعذار لهم فمن المعروف أن مكة المكرمة كلها حرم لا يجوز القتال فيه .

١- أكرم العلبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ، الشركة المتحدة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص١٩٣-١٩٥ .

٢- إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ، المجلد الثانى ص٧٥-٧٨ .

٣- أحمد عبد الغفور عطار : الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، مكة المكرمة ، ١٣٦٧هـ/١٩٧٧م ص١١٦ .

٩ – الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدولة العثمانية للأوربيين فى البلدان العربية :

من المعروف انه نتيجة لدخول العثمانيين إلى البلاد العربية حرمت هذه البلاد من ممارسة سيادتها خارج نطاق حدودها وأصبحت الدولة العثمانية هى صاحبة الأمر والنهى فى تسيير أمورها ، وقد أعطت هذه الدولة بعضا من الامتيازات لعدد من الدول الأوربية تم استغلالها فى فترة ضعف الدولة لصالح رعايا هذه الدول الذين أخذوا يفسرون هذه الامتيازات تفسيرا تعسفيا ، كما أخذت دولهم تتدخل فى شئون البلدان الإسلامية مستغلة فى ذلك هذه الامتيازات وانتزعت لنفسها العديد من الأطماع(١) .

١٠ – مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال البريطانى لمصر :

كان لتخبط السياسة العثمانية تجاه المسألة المصرية أكبر الأثر فى تعقدها وضياع استقلالها ومن أمثلة ذلك التخبط عدم موافقة السلطان عبد الحميد على الاشتراك فى مؤتمر الآستانة فى عام ١٨٨٢ الذى تقرر فيه بحث المسألة المصرية مما أبعد الدولة العثمانية عن المشاركة فى تحديد مستقبل مصر ، وترك مصيرها معلقا فى أيدى الدول الأوربية(٢). يضاف إلى ذلك أنها ترددت فى اتخاذ موقف ثابت تجاه كل من العرابيين والخديو ، كما ترددت فى إرسال قوات عسكرية إلى مصر بناء على طلب الخديو ، وتباطأت فى اتخاذ موقف محدد من طلب الخديو المعونة من الانجليز ثم زادت الطين بله بإصدارها منشورا بعصيان عرابى مما قلب ميزان الحماس الشعبى ، وأضاع التأييد الإسلامى للثورة العرابية، وكان له أسوأ الأثر فى النفوس وأدى إلى إيقاع الفرقة والانحلال فى صفوف العرابيين ، وانصراف الناس عن تأييدهم مما أتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر(٣) .

١١ – مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال الفرنسى للجزائر :

تباطأت الدولة العثمانية فى ترضية فرنسا عندما طلبت منها التدخل لتأديب داى الجزائر الذى أظهر عداء واضحا للفرنسيين بتحقيره لقنصل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية ، وكان يجب عليها الإسراع لحسم الموقف خصوصا وأن نذر الحرب كانت واضحة بين فرنسا والجزائر . ومع ذلك فانها قررت عدم التدخل فى القضية فى

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٧٢٠ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٤ ص٢٢٧٥ .

٣- لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر بحثنا المعنون " موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية " والمنشور فى العدد السادس والعشرون من المجلة التاريخية المصرية .

أول الأمر نظرا لأنها كانت منهمكة فى إخماد ثورة الموره القائمة ضدها[1] . ونتيجة لذلك انفردت فرنسا بالجزائر ، وتمت باحتلالها فى عام ١٨٣٠م .

١٢ - عدم مسايرة العثمانيين للتطورات التى حدثت فى أوربا إبان عصر النهضة، وعزلهم للعالم العربى عن التطور العالمى الذى بدأ مع بداية العصور الحديثة وذلك عندما فرضوا ستارا حول العالم العربى بحجة حمايته من الغزو العسكرى الأوربى. حقيقة لقد سمحت الدولة العثمانية بوجود تبادل تجارى بين العرب والأوربيين[2] ولكنها أبقت العالم العربى على حالته التى كانت موجودة قبل فتحها له . وفى الوقت الذى تطورت أوربا فى مضمار النهضة تطورا كبيرا أسدلت الدولة العثمانية ستار الجمود حول البلدان العربية بهدف تعويق تقدمها ومنعها من الاقتراب من عصر النهضة الذى بدت آثاره واضحة فى أوربا مما أدى إلى تخلف العالم العربى عن ركب هذه النهضة ، وإضعاف ثقته فى نفسه .

كل هذه الأوضاع جعلت العالم العربى يعيش فى حالة من الجمود فى ظل الحكم العثمانى جعلته يدخل إلى القرن العشرين وهو لم يتخلص بعد من حياة العصور الوسطى. وانتهى الأمر بظهور جماعة الاتحاد والترقى ، وسيطرتها على مقاليد أمور الدولة العثمانية ، وتعصبها للحركة الطورانية التى تستمد أساسها من التركيز على انتساب الأتراك إلى أصول طورانية والدعوة إلى بعث الجنس التركى وتمجيده ، وتخليصه من المؤثرات العربية والفارسية ، ومحاولة تتريك العرب وغيرهم من العناصر التابعة للعثمانيين بجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى المدارس والمحاكم والدواوين[3] ، مما أدى إلى نفور العرب ، وشعورهم برغبة الأتراك فى صبغهم بالصبغة التركية .

ولما ألغيت السلطنة وجاء أتاتورك اتخذ من الاجراءات التى باعدت بين الدولة والإسلام عموما ، ومن هذه الاجراءات إلغاء الخلافة ، وإلغاء منصب شيخ الإسلام وحذف عبارة "إن دين الدولة التركية هو الإسلام" والمناداة بتركيا دولة علمانية[4] ، وإلغاء القانون الإسلامى وتبنى قانون الأحوال الشخصية العلمانى ، وإلغاء التقويم الهجرى ، واستبدال العطلة الاسبوعية بيوم الأحد بدلا من الجمعة ، وإلغاء الحروف العربية التى كانت تكتب بها اللغة التركية واستبدالها بحروف لاتينية، ومنع الصلاة والتعبد فى جامع آيا صوفيا ، وتحويله إلى متحف[5] .

١- أرجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٢٧-١٨٤٧م - ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمى ، تونس ، الطبعة الثانية ص٢٤-٢٥ .

٢- سيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥ ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ص٤٤٢ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٢٢٨ .

٤- نفسه جـ١ ص٨٥ .

٥- للتفاصيل انظر على حسون: تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ص٢٢٧-٣٠٠ .